

الفصل الأول

عمر في جاهليته

استهل ذو القعدة لسنوات قبل مبعث النبي ، فأقبل العرب أفواجاً يحدون إبلهم من شتى الأرجاء في شبه الجزيرة ليقيموا سوق عكاظ كعادتهم قبل الحج من كل عام . وكانت السوق تضطرب بمن جاءوا إليها من مختلف القبائل ، وفيهم من أهل مكة عدد غير قليل . وقد أقام هؤلاء العرب مضاربيهم في فسحة البطحاء المترامية التي تقوم السوق عليها ، ثم جعلوا ناحية منها للتجارة . وفي هذه الناحية أقام جماعة أمام مضاربيهم متاجر يعرضون فيها سلعاً قلَّ منها ما كان من صناعة الحجازيين أنفسهم ، في حين قد جاء أهل مكة ومن إليهم بأكثرها من اليمن ومن الشام في رحلتى الشتاء والصيف . والناس يؤمُّون هذه المتاجر رجالاً ونساءً ، يتعاونون منها ما يشاءون . وأكثر ما تقف النسوة عند البزازين بائعي الأقمشة والسياب ، يقلِّبن بين أيديهن شتى ألوانها ، ثم يخترن من نسج اليمن أو صناعة الشام ما تهوى إليه قلوبهن . فإذا كانت بينهن مليحة جذبت إلى المضرب من الشبان والرجال من يتظاهرون بالشراء ، وإن كانوا أشد حرساً على اجتلاء جمال المليحة منهم على مس الحرائر والمتاع بألوانها واقتناء ما يعجب منها . وعلى مقربة من هذه المتاجر قامت حلقات اللهو يؤمها الشبان طرفاً من النهار وأطرافاً من الليل ؛ ولا تأتي الحسان أن يكن على مقربة منها . فإذا أقبل الليل ذهب الشبان يحسسون الشراب حتى تميل أعناق بعضهم ، ثم تركوا لنوازع اللهو والهوى العنان . وكم أدت هذه النوازع إلى مهاترات ومصاولات بدأت طفيفة ثم تجسمت ، حتى انتهت إلى قتال بين القبائل امتد على السنين .

قام شاعر يوماً في جانب السوق ينشد قصيدة له ؛ يتغزل في مطلعها ، ثم ينتقل من الغزل إلى المفاخرة بنفسه وبقبيلته ، ثم إلى التعريض بقبيلة نازعت قبيلته العام الفاتت وإلى النيل منها . والتفتَّ حول هذا الشاعر المجيد حلقة من أهل السوق تسمع له وتستجيد غزله . فلما انتقل من الغزل إلى الفخر صفق له قوم طرباً ، وصاچ به آخرون إنكاراً واستهجاناً . أما إذا انتقل إلى التعريض بالقبيلة التي خاصمت قبيلته وإلى النيل منها ، فهذا هو ذى صيحات الطرب وصيحات الإنكار تنقلب نزاعاً عنيفاً يحرك السيوف في غمودها . فلما أتم

الشاعر قصيدته قام شيخ ذو حكمة ودعا القوم إلى السلم ، وما زال بهم حتى جنحوا لها . كان بين الذين يستمعون لهذا الشاعر شابٌ مجاوز سنه العشرين ، ضخم جسم مديد القامة ، تعلق هامته هامات الجمع كله ، أبيض اللون تعلقه حمرة تضرب بلونه إلى السمرة . وقد كان ينصت إلى الشاعر إِنْصَاتٍ إعجاب يدفعه ليهز رأسه الحين بعد الحين ، آية اغتباطه بما سمع وطربه له ودقة تذوقه إياه . لم يشارك الصائحين في صياحهم ، لأن مفاخرة الشاعر بقبيلته لم تَعْنَهُ ، وتعرضه بالقبيلة الأخرى لم يَعْنَهُ كذلك ؛ فهو ليس من هذه القبيلة ولا من تلك ، بل لعل القبيلتين كانتا بعيدتين عن موطنه بعداً زاده انصرافاً عن أمرهما إلى المتاع بجمال الشعر الذى يسمعه . وأتم الشاعر قصيدته فأقام الفتى ينصت لما يقول الحكيم . فلما جنح القوم للسلم انصرف يتقدم جماعة من أصحابه مسرعاً في مشيته حتى لقد شق على تابعيه أن يلحقوا به . ذلك لأنه كان أروحَ في رجليه سعة فلا يعرف في المشى بطئاً . وكان أصحابه يحادثونه عليهم يستوففونه فلا يفوتهم بسعة خطوه . واتصل هذا الحديث منتقلاً من الحوار الهادئ إلى جدل فيه عنفٌ وشدة . عند ذلك وقف الشاب ، وقد احمرَّت عيناه وبدت عليه أمارات الغضب ، فنفخ وفتل شاربه الطيرير وقال :

- بهذا الفتى تخوفوني !! لست للخطاب إن لم أصرعه لأول ما ألقاه !!

واندفع في طريقه أكثر إسرعاً ، حتى كانت خطوات أصحابه من خلفه أدنى إلى الهرولة منها إلى السير . فلما بلغوا حلقة المصارعة المنصوبة في جانب من عكاظ ألقوا فتيناً أشداء مفتول العضل يشهدون أحدهم جائماً على صدر صاحبه وقد ألقاه إلى الأرض صريعاً . وما لبث القوم حين رأوا عمر بن الخطاب يسير إليهم أن فسحوا له طريقاً . وقام المتصارعان فوقفا مع النظارة وأيقنا أن عمر لم يجئ شاهداً وإنما جاء مصارعاً . وأدار عمر بصره في الحاضرين ولا يزال الغضب آخذاً منه . فلما صادف الفتى الذى دار عنه الحديث بينه وبين أصحابه دعاه لينازله . وابتسم الفتى وتقدم حتى توسط الحلقة ، وهو أشد ما يكون اطمئناناً إلى نفسه وثقته بقوته ومقدرته . إنه لم يصارع عمر من قبل ، فهذه أول مرة جاء فيها مع قبيلته إلى عكاظ ؛ لكنه لم يُغَلَبْ مرة منذ جاء ، حتى لقد هابه الأقران وحسبوا حسابه . وكان يقرب عمر طولاً وجسامة . وتقدم إليه عمر يصاوله . وحاول الفتى البدوى أن يصرع عمر ، وأبدى من ضروب المهارة في التزال ما جعل النظارة يتكاثرون ويزداد عددهم إلى ما لم يألفه أحد من قبل . وأقبلت فتيات كن على مقربة من المكان سمعن إسمى المتصارعين ، فحرصن على أن يرين ما سيكون منهما . فقد عرفن ، كما عرف الناس في

الأعوام التي خلت ، أن ابن الخطاب لا غالب في المصارعة له . فلما أقبل هذا البدوي وصرع كل الذين صارعوه ، رجا أهل عكاظ جميعاً أن يصارع ابن الخطاب ، وراهن بعضهم بعضاً لأى الفتيتين يكون الغلب . فلما دعا عمر صاحبه للمصارعة سرى النبأ في السوق كلها مسرى البرق ، وأقبل كل من لم يمسكه عمله ، يريد أن يأخذ من هذا المشهد بنصيب . وترك عمر صاحبه زمناً يحاوره ويحتال ليصرعه ، وهو منه في موقف المدافع ، لا يبذل من الجهد ما يبذل البدوي البارع . فلما أحسَّ به هاضه الجهد انقضَّ عليه فركب أكتافه وألقاه على الأرض صريعاً . وضجت الحلقة بذكر عمر ومقدرته ، وتذاكر شهودها سابق فعاله في مثل هذه المواقف . ولم تكن الفتيات والنساء أقل من الرجال والفتيان إشادة بالفتى القرشى النبيل ذى الأيد .

بدأت الشمس بعد قليل تنحدر إلى المغيب ، وبدأ النظارة يتصرفون كل إلى مقصده . وصار عمر يجوس خلال السوق وأصحابه من حوله يبدون من الإعجاب به ما يكافهم عنه بابتسامة قلما كانوا يرونها مرتسمة على مُحيَّاه . وهو لم يكن يخص أصحابه بهذه الابتسامة ؛ فقد كان يرى أبصار من يمر بهم سُدَّتْ إليه وهم أشد من أصحابه إعجاباً به ، ويرى فتيات يشرن إليه ويتهاقن يردن أن يحظنَّ منه بنظرة رضا عنهن أو هوى لحسن المليحة منهن ، فيبعث ذلك إلى نفسه من أسباب الرضا ما تعبر هذه الابتسامة عنه .

وجن الليل فمال في أصحابه إلى ملهى قام على حافة السوق ، تنفسح البادية من ورائه إلى مدى الأفق . وتخير عمر أدنى مكان من البادية فجلس فيه بعد أن أهدى تحية المساء لمن مر بهم من معارفه الكثيرين الذين ردوا تحيته بأحسن منها ، وأضافوا من عبارات الإعجاب به والثناء عليه ما أعجبه . وأقبلت خمارة هيفاء تهادى وكل نظرها إلى الفتى الظافر ، وقد طَوَّقَتْ ثغرها ابتسامة بدت من خلالها ثناياها الغرَّ العذاب . وأبدى عمر في حديثه إليها سماحة لم يبدها منذ أقيمت السوق ، فلم تأب أن تبه دلا عليه . وبعد هنيهة عادت أدراجها ثم كرت راجعة تحمل الخمر المعتقة لهؤلاء الشاربين الأوفياء الذين لم يقضوا من ليلالى السوق ليلة في غير حانتها . وكان عمر بين أصحابه يشرب بالكبير ، ويشرب سائرهم بالصغير . وتقدَّم الليل والفتيان يشربون ويسمرون ، ينتقل بهم الحديث من الجد إلى المجانة ، ومن الغزل بالنساء إلى ركوب الخيل ، ومن أيام العرب إلى أنسابها ، وعمر يُفيض في ذلك كله إفاضة علم حلت الخمر عقدة لسانه ، وزاده الظفر بصاحبه البدوي

إقبالا على الحديث واسترسالا فيه . وفيما يتذاكرون فارساً رأوه ضحى يركب جواداً ينهب به الأرض ، صاح عمر :

- واللات والعزى لقد خلتنى إياه إعجاباً بقدرته على رياضة جواده ! .

وابتسم صاحبه الذى حاوره من قبل فى أمر البدوى المصارع وقال :

- تغفر العزى لابن عمك زيد بن عمرو وقوله :

فلا العزى أدينُ ولا ابتتهها ولا صنمى بنى طسم أديرُ

أرباً واحداً أم ألف ربُّ أدينُ إذا تقسّمت الأمور !

ويجهم عمر لما سمع من ذلك قال :

- تبأ له ! ولا غفرت العزى كفرانه ! خيراً فعل الخطاب إذ أخرج ابن أخيه من

مكة ومنعه من أن يدخلها منذ فارق ديننا ، وعادى أوثاننا ، وصبأ يلتمس الهاً عند اليهود والنصارى، فلم يظفر من هؤلاء ولا من أولئك بخير فزعم أنه على دين أبيه إبراهيم . ولو أن الخطاب ترك لى أمره لصرخته فأوردته حتفه .

وينتقل الحديث من بعد إلى شئون أدمى إلى طمأنينة النفس . وإن القوم لى سمرهم إذ طرقت سمعهم أصوات ناعمة لعذارى خرجن من مضاربهن إلى فسحة البادية ينعمن فيها بأسرار الليل أو يقضين فيها بعض شأنهن . وأمسك عمر عن الحديث وكأتما لعبت هذه الأصوات بفؤاده . فلما رآه أصحابه أمسك أجالوا فيه أبصارهم ، فإذا هو يهيم بالقيام ويقول : سادعكم هنيةً لبعض شأنى وسرعان ما أعود . وابتسموا ، فصاحبهم صاحب نساء كما أنه صاحب خمر . وقصد عمر إلى ناحية الصوت الناعم ، فسمع غانية تقول لصاحباتها : هذا عمر يقدّمنا ؛ فلنخيل إليه أننا نفرّ منه كى لا يصرعنا ، فلما اقترب منهن تظاهرت كلُّ بالفرار إلى ناحية ، ولم تبقى إلا هاته الغانية أسقطت خمارها ، وزعمت أنها تصلحه . وعرفها ابن الخطاب صاحبه التى لقيها منذ أيام ، فسعد معها بأحلى سويغات عكاظ هذا العام . وأدركت صاحباتها حيلتها فتعالّت أصواتهن بضحكات السخط والسخر والغيرة . وعاد عمر إلى أصحابه على موعد منها . ولم يطل به المقام حتى نقد الخمارة قدر ما شربوا ، ثم انصرف عن أصحابه إلى حيثما اتفق .

كان النهار ضحى حين لقي عمر أصحابه كرة أخرى ، وقد تذكروا مصارعة أمس وفيها أبدى عمر فيها من مهارة ، وتمنّوا لو أن عمر صارع صاحبه كرة أخرى حتى يصرعه ، فلا تقوم لهذا البدوى من بعد فى ميدان المصارعة قائمة . وخالفهم عمر ورأى فى قولهم

ما لا تقره الشهامة . إنه الفائز ، فإذا أراد صاحبه أن يثار لنفسه فلن يتردد في مصاولته . لكنه لن يبدأه بالدعوة إلى هذه المصاولة ولن يتحداه . والسوق بعد موشكة على ختامها . فبعد ثلاثة أيام ينصرف الناس عن عكاظ إلى مجنّة ليتجهزوا للطواف بالبيت ، فتقدّم كل قبيلة هدّياً قرباناً لسنمها . فإذا نحر الناس ذهبوا إلى ذى المجاز يترؤون منه لصعود عرفات . وفي الأيام الثلاثة التي تسبق مجنّة يُشغّل الناس بالتجهيز للحج عن كل مصارعة أو مصاولة .

وانقضت ثلاثة الأيام وقد أذعن الفتى البدوي لما أصابه ؛ إذ رأى ابن الخطاب قرناً لا يقهر . ويجهز الناس للانصراف من عكاظ ، فكان عمر أسبقهم إلى هذا التجهيز : دعا غلامه فاتاه بجواده حين أضحى النهار . ورأى شبان من نبلأ القبائل المختلفة هذا الجواد ، فأعجبوا بلونه الأدهم وأذنيه الصغيرتين ورأسه المترفع وساقيه الدقيقتين وبطنه الضامر . وكأنما أدركت بعضهم الغيرة لما رأوا من اعتزاز عمر بنفسه وبجواده ، اعتزازاً فيه صلف وغلظة ، فدعوه للسباق ، فإذا فرغوا من السباق استراحوا ثم انحدروا إلى مجنّة بعد أن تنكسر القيلولة .

وقبل عمر دعوتهم ، فدعوا فجيئوا بجيادهم ، وساروا جميعاً إلى فسحة البادية ، فاختاروا حلبة سباق فيها . وامتنطى كل جواده ودفعه حين أشار المشير ، فإذا عمر وجواده كأنهما قطعة واحدة لا يدري الشاهد أهي تنهب الأرض أم تلقى في يد الريح التراب . ولم يكن إعجاب أهل السوق بفوز عمر في السباق دون إعجابهم بفوزه في المصارعة . ولم يقف أمر الفتيات عند الإعجاب به ؛ فقد أخذن منهن بمجامع القلوب وملك عليهن كل الجوارح . وكانت صاحبتة التي أمتعتته بأحلى سويغات عكاظ هذا العام تبتسم بينهن ابتسامة زادتهن غيرةً ، وجعلتهن يرمقنها من عيونهن العربية الجميلة بنظرات لعلها بعض ما عناه عمر ابن أبي ربيعة حين قال :

حَسَدًا حُمِّلْنَاهُ مِنْ أَجْلِهَا وَقَدِيمًا كَانَ فِي النَّاسِ الْحَسَدُ

وأفاض الناس من عكاظ إلى مجنّة ثم إلى ذى المجاز ، فقصوا المناسك لأصنامهم ، ورجعت كل قبيلة منهم إلى مقامها من شبه الجزيرة .

واستدار العام وجاء موسم عكاظ ، فكان لعمر فيه مثل ما كان له في العام الذي سبقه ، وظل ذلك شأنه عدة سنوات .

ثم إنه تأخر عاماً عن مفتتح السوق ، فافتقده الناس وتساءلوا عن سبب تخلفه ، وزاد

تساؤلهم انه كان قد بدأ يزاول التجارة ويشغل بها . وكيف لتاجر له من المكاثة ما لعمر أن يغيب عن سوق العرب العامة ومعرضهم السنوي الأكبر ! لكنهم عرفوا أنه اضطلع بالمهمة التي كان يضطلع بها آباؤه من قبيلة عدى بن كعب ، مهمة السفارة بين قريش وغيرها من القبائل كلما حدث بينهم خلاف ، وأن هذه المهمة وكلت إليه في أمر ذى بال جد بين إحدى قبائل قريش وجماعة ثقيف . ولشد ما اغتبط أهل السوق جميعاً حين علموا أن عمر جاء إليهم ليقضى معهم ما بقي من أيام السوق ، وأنه أتم سفارته على خير حال . جاء ممتطياً جواده الأدهم ، فبدأ يباشر تجارته وكانت قد سبقته . ثم لم تنته مباشرتها عن المصارعة ، ولم يززع ما له من شهرة بين أصحابه أنه صاحب خمر وصاحب نساء .

وَبُعْثَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ هَذَا الْعَامِ ، ثُمَّ أُذَاعَ فِي النَّاسِ رِسَالَتَهُ ، فَانْبَرَى لَهُ عُمَرُ يَحَارِبُهُ بِحِمِيَةِ الشَّبَابِ وَالْفَتْوَةَ حَرْبًا جَاهِلِيَّةً عَنِيفَةً أَشَدَّ الْعَنْفِ . فَإِذَا جَاءَ إِلَى عِكَازٍ ، وَجَلَسَ إِلَى النَّاسِ وَصَادَفَ حَدِيثَهُمْ سِيرَةَ الرَّجُلِ الَّذِي قَامَ فِي قُرَيْشٍ بِدَعْوَاهَا إِلَى نَبْذِ الْأَصْنَامِ وَعِبَادَةِ الْوَاحِدِ الْأَحَدِ ، هَاجَ عُمَرُ وَمَاجَ ، وَأَطْلَقَ لِسَانَهُ فِي مُحَمَّدٍ ، وَعَابَهُ بِمَا فَرَّقَ مِنْ كَلِمَةِ قُرَيْشٍ وَبِمَا صَبَأَ عَنْ دِينِ آبَائِهِ وَأَجْدَادِهِ . وَلَقَدْ كَانَ الْغَضَبُ يَبْلُغُ مِنْهُ لَخُرُوجِ مُحَمَّدٍ عَلَى قَوْمِهِ ، فَلَا يُحْجَمُ عَنِ التَّهْدِيدِ بِقَتْلِهِ لَوْلَا مَنَعَ بَنِي هَاشِمٍ لَهُ وَمَا يَجْرَهُ هَذَا الْقَتْلُ مِنْ ثَارَاتٍ لَا قَبِيلَ لِمَكَّةَ بِهَا .

وظل ذلك شأنه حتى أسلم ، فصار يدافع عن دين الله وعن رسول الله بمثل الحمية التي كان يحاربهما بها قبل إسلامه .

هذه صورة من شباب عمر بن الخطاب ، ترسم أمامك واضحة تمام الوضوح كلما ازددت إمعاناً في قراءة كتب التاريخ الإسلامي قديمها وحديثها . فإذا أردت أن تعود إلى ما قبل شبابه لم تجد في هذه الكتب ما يعينك على رسم صورة من طفولته وصباه في هذا الوضوح ، وإن أسعفتك في أمره بخير مما تُسَعْفِكُ في أمر الكثيرين ممن عاصروه . فهو من قبيلة عدى بن كعب . وهي قبيلة عدنانية من قريش ، انتهى إليها الشرف كما انتهى إلى عشرة رهط من عشرة أبطن في مقدمتها هاشم ، وأمّية ، وتيم ، ومخزوم . على أن عدياً لم تبلغ من المكاثة في مكة قبل الإسلام ما بلغه بنو هاشم وبنو أمّية ؛ فلم يكن لها من مناصب مكة الدينية أو الزمنية ، ولم يكن لها من الثروة ما لهم . مع ذلك كانت تنافس بنو عبد شمس الشرف ، وتحاول أن تبلغ مكانتهم . وظل هذا التنافس ممتداً على الأجيال ، حتى اضطر بنو عدى في حياة الخطاب بن نقيّل والد عمر إلى الجلاء عن

منازلم القائمة عند الصفا والانحياز إلى قبيلة بنى سهم والمقام في جوارهم . وقد حفر هذا التنافس أجداد عمر ، فكانوا ، على قلة عددهم وعلى ضعف مكانتهم من القبائل الكبرى ، ذوى دراية وعلم وحكمة .

وقدمهم علمهم وقدمتهم حكمتهم إلى مكان السفارة والحكم في المناقرات ، فكانوا المتحدثين عن قريش إلى غيرها من القبائل فيما ينجم من خلاف يتسنى حسمه بالمفاوضة . وكانت حكومتهم تُرضى في المناقرات ، وكانوا ذوى بلاغة وحسن عبارة . وقد أدت بهم الحكمة إلى أن ظهر بينهم زيد بن عمرو أحد من اعتزلوا عبادة الأوثان وامتنعوا من أكل ذبائحها . ثم كان بينهم عمر بن الخطاب ، وحسبك به فخرًا لقبيلة ينتمى إليها .

هذه قبيلة عمر . أما أبوه فهو الخطاب بن نُفَيْل بن عبد العزى بن رياح بن عبد الله ابن قُرْط بن رزاح بن عدى بن كعب . وعدى هو أخو مرة الجد الثامن للنبي . فأما أمه فَحْتَمَةُ بنت هاشم بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم .

وقد كان الخطاب شريفًا في قومه ، لكنه لم يكن ذا مال ولا خدم . كتب عمر إلى عمرو بن العاص وهو على مصر كتاباً يسأل فيه عن أصل المال الذى جمعه بها ؛ فغضب ابن العاص وكان مما أجاب به : « . . . ووالله لو كانت خيانتك حلالاً ما خنتك وقد ائتمنتى ؛ فإن لنا أحساباً إذا رجعنا إليها أغنتنا عن خيانتك . وذكرت أن عندك من المهاجرين الأولين من هو خير منى ، فإذا كان ذلك فوالله ما دقت لك يا أمير المؤمنين ياباً ولا فتحت لك قفلاً » .

وبلغ الغضب من ابن العاص لكتاب عمر أن قال لمحمد بن مسلمة حين ذهب إليه من قبل عمر يحاسبه : « . . . لعن الله زماناً صرت فيه عاملاً لعمر ! والله لقد رأيت عمر وأباه على كل واحد منهما عباءة قطوانية ^(١) لا تجاوز مابض ركبتيه ، وعلى عنقه حزمة حطب ، والعاص بن وائل في مزررات الديباج » . فقال له محمد : إيهأ عنك يا عمرو ! فعمر خير منك ، وأما أبوك وأبوه فإنهما في النار . . . » .

وكان الخطاب فظاً غليظاً . مرَّ عمر في خلافته يوماً بمكان كثير الشجر يقال له ضجْجان ، فقال : « لقد رأيتنى وإنى لأرعى على الخطاب في هذا المكان ، وكان والله ما علمت فظاً غليظاً » . وفى رواية الطبرى أن عمر لما مر في خلافته بضججان قال : لا إله إلا الله المعطى ما شاء من شاء ! كنت أرعى إبل الخطاب بهذا الوادى في مدرعة

(١) عباءة قطوانية : بيضاء قصيرة الخمل .

وَأَلَّبَ عَلَيْهِ جَمَاعَةٌ مِنْ قَرِيْشٍ أَخْرَجُوهُ مِنْ مَكَّةَ وَمَنَعُوهُ أَنْ يَدْخُلَهَا ، وَكَانَ الْخَطَابُ أَشَدَّهُمْ فِي ذَلِكَ وَأَقْسَاهُمْ عَلَيْهِ .

وَقَدْ تَزَوَّجَ الْخَطَابُ ، فِيمَنْ تَزَوَّجَ ، حَتْمَةَ بِنْتِ هَاشِمِ بْنِ الْمُغَيَّرَةِ مِنْ بَنِي مَخْزُومٍ ، وَهِيَ لِخَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ ابْنَةِ عَمِّ لِحَاءٍ ؛ فَالْمَغَيَّرَةُ بِنْتُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ مَخْزُومٍ جَدَّهُمَا مَعًا . وَكَانَ الْمُغَيَّرَةُ الْمَخْزُومِيُّ سَيِّدًا مِنْ سَادَاتِ قَرِيْشٍ وَبَطْلًا مِنْ أَبْطَالِهَا . وَكَانَتْ لَهُ إِمَارَةٌ الْجَنْدِ الَّتِي كَانَتْ لِسَيِّدِ بَنِي مَخْزُومٍ ، وَكَانَ لِذَلِكَ يَلْقَبُ صَاحِبَ الْأَعْنَةِ . وَكَانَ لِمَكَانَتِهِ مِنْ قَرِيْشٍ أَوَّلٌ مِنْ نَصَحَ إِلَى عَبْدِ الْمَطْلَبِ جَدِّ النَّبِيِّ الْأَيُّوبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ وَفَاءَ لِنَدْرِهِ ؛ فَقَدْ قَالَ لَهُ : « وَاللَّهِ لَا تُدْبِحُهُ أَبَدًا حَتَّى تُعْذِرَ فِيهِ . فَإِنْ كَانَ فِدَاؤُهُ بِأَمْوَالِنَا فِدْيَانَهُ » . وَكَانَتْ حَتْمَةُ لِمَكَانَتِهَا هَذِهِ مَرْعِيَّةَ الْجَانِبِ مِنْ زَوْجِهَا ، مَفْضَلَةٌ عِنْدَهُ عَلَى غَيْرِهَا مِنْ ضَرَائِهَا . فَلَمَّا وُلِدَتْ عَمْرٌو فَرِحَ أَبُوهُ لِمَوْلَدِهِ ، وَقَرَّبَ لِلْأَصْنَامِ مَبَالِغَةً فِي إِظْهَارِ سُرُورِهِ ، وَنَالَ فَقْرَاءَ بَنِي عَدِيِّ الْكَثِيرِ وَنَ يَوْمُنْذَ مِنَ الطَّعَامِ مَا قَلَّ عَهْدَهُمْ بِهِ .

مَتَى وُلِدَ عَمْرٌو ؟ ذَلِكَ أَمْرٌ لَا سَبِيلَ إِلَى الْقَطْعِ بِهِ . فَالْمُتَأَمَّنُّ أَنَّهُ مَاتَ فِي أَحَدِ الْأَيَّامِ الثَّلَاثَةِ الْأَخِيرَةِ مِنْ شَهْرِ ذِي الْحِجَّةِ سَنَةِ ثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ مِنَ الْهِجْرَةِ . لَكِنْ الْخِلَافُ قَائِمٌ عَلَى سَنَةِ مَاتَ : قِيلَ كَانَ ابْنُ خَمْسٍ وَخَمْسِينَ ، وَقِيلَ كَانَ ابْنُ سَبْعٍ وَخَمْسِينَ ، وَقِيلَ كَانَ ابْنُ سِتِينَ ، وَقِيلَ كَانَ ابْنُ ثَلَاثٍ وَسِتِينَ ، وَقِيلَ غَيْرَ ذَلِكَ . وَأَكْبَرُ الظَّنِّ أَنَّهُ مَاتَ حَوْلَ السِتِينَ . فَإِذَا صَحَّ ذَلِكَ كَانَ قَدْ هَاجَرَ وَهُوَ دُونَ الْأَرْبَعِينَ . وَلَيْسَتْ صِحَّةُ هَذَا الظَّنِّ مِمَّا نَسْتَطِيعُ الْجُزْمَ بِهِ .

وَنَشَأَ عَمْرٌو فِي طِفْلُوته وَصِبَاهِ نَشَأَةً أَمْثَالَهِ مِنْ أَبْنَاءِ قَرِيْشٍ ، ثُمَّ ائْتَمَّ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُ كَانَ مِمَّنْ تَعَلَّمُوا الْقِرَاءَةَ ، وَهَؤُلَاءِ كَانُوا قَلِيلِينَ جَدًّا ، فَلَمْ يَكُنْ فِي قَرِيْشٍ كَلِمَةٌ حِينَ بُعِثَ النَّبِيُّ غَيْرُ سَبْعَةِ عَشَرَ رَجُلًا يَقْرَءُونَ وَيَكْتُبُونَ . وَنَحْنُ نَقُولُ الْيَوْمَ إِنَّهُ ائْتَمَّ عَلَى أَقْرَانِهِ بِذَلِكَ . أَمَّا الْعَرَبُ لِذَلِكَ الْعَهْدِ فَلَمْ يَكُونُوا يَعْدُونَ الْقِرَاءَةَ وَالْكِتَابَةَ مَزِيَّةً ، بَلْ كَانُوا يَرْغَبُونَ عَنْ تَعَلُّمِهَا وَعَنْ تَعْلِيمِهَا أَبْنَاءَهُمْ .

= أَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمْتُ لَهُ الْمِزْنَ تَحْمَلُ عَذْبًا زَلَالًا
وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمْتُ لَهُ الْأَرْضَ تَحْمَلُ صَخْرًا ثَقَالًا
دَحَايَا فَلَمَّا اسْتَوَتْ شَدَّهَا سِوَاهُ وَأَرْمَى عَلَيْهَا الْجِبَالَ

وَقَدْ رَوَى صَاحِبُ الْأَغَانِي بِإِسْنَادٍ أَنَّ سَعِيدَ بْنَ زَيْدِ بْنِ عَمْرٍو وَعَمْرُوبَ الْخَطَابَ سَأَلَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ زَيْدٍ فَقَالَ : « يَا بَنِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ أُمَّةٌ وَحِدَةٌ » .

ولما شب عمر جعل يرعى لأبيه إبله بَصْنَجَانٍ وغير ضَجْنَانٍ من ضواحي مكة . وقد ذكرنا حديثه عن أبيه وقسوته عليه حين رعيه إبله . وروى صاحب العقد الفريد أن عمر قال يوماً للنايعة الجعدى : أسمعني بعض ما عفا الله لك عنه من غنائك ، فأسمعه كلمة له . قال : « وإنك لقائلها ؟ » قال « نعم ! » . قال : « لطالما غنيت بها خلف جمال الخطاب » . وكان رعى الإبل بعض ما يعهد به إلى أبناء قريش على اختلاف منازلهم من الشرف .

ولما تدرَّج عمر من الصبا إلى الشباب بدا في مظهر من القوة بدَّ به أقرانه . فاقهم طولاً وجسامة ، حتى لقد رأى عوف بن مالك الناس جمعوا في صعيد واحد ، فإذا رجل قد علاهم جميعاً على نحو يقف النظر ، فسأل عنه ، فقيل : هذا عمر بن الخطاب (١) . وكان أبيض اللون تعلوه حمرة ، أعسر أيسر ، في رجليه رَوْحٌ يسرع به في مشيته .

وقد حذق من أول شبابه ألواناً من رياضة البدن ؛ حذق المصارعة وركوب الخيل والفروسية . لما أسلم لقي رجلاً راعياً فقال له : أشعرت أن ذلك الأعسر الأيسر أسلم ؟ فقال الراعى : الذى كان يصارع في سوق عكاظ ؟ فلما أجاب الرجل أنه هو ، صاح الراعى : أما والله ليوسعنهم خيراً أو ليوسعنهم شراً . وكان ركوب الخيل من أحب ألوان الرياضة إليه طول حياته . أقبل يوماً في خلافته على فرس يركضه حتى كاد يوطئه الناس ، وعجب الناس حين رأوه فقال : وما أنكرتم ! وجدت نشاطاً فأخذت فرساً فركضته . وكان له في الحرب مواقف ورثها عن أحواله بنى مخزوم . وذلك قول أبي بكر في مرض وفاته : « وددت أنى كنت إذ وجهت خالد بن الوليد إلى الشام وجهت عمر بن الخطاب إلى العراق ، فكنت قد بسطت يديّ كلتيهما في سبيل الله » .

وكما حذق الفروسية والمصارعة وغيرهما من ضروب الرياضة وألوانها ، تذوق الشعر ورواه . كان يسمع الشعراء في عكاظ وفي غير عكاظ ، ويحفظ عنهم ويروى ما يروقه من شعرهم ، وكان له من بعدُ أحاديث طويلة مع الحطيثة وحسان بن ثابت والزُّبيرِ قان وغيرهم . ثم إنه برز في معرفة أنساب العرب إذ تعلمها عن أبيه ، فصار من أنسب العرب للعرب . وكان جيد البيان حسن الكلام . لهذا كله كان يذهب في سفارات قريش إلى غيرها من القبائل ، وكانت حكومته تُرضى في المنافرة كحكومة أبيه من قبله .

(١) في رواية ابن سعد في الطبقات : « فإذا رجل قد علا الناس ثلاثة أذرع ، قيل من هذا ؟ قيل : عمر .

وكان عمر ، كغيره من شبان مكة ورجالها ، محباً للشراب متوفراً عليه . بل لعله كان أشد من أمثاله ولعاً به . كذلك كان له صدّر شبابه غراماً بالغانيات ، جعل الذين يترجمون له يُجمعون على أنه كان صاحب خمر وصاحب نساء . وإنما كان يجري في هذا على مألوف قومه ؛ فقد كان لأهل مكة بالنبيذ غرام أى غرام ، وكانوا يجردون في النشوة به نعيماً أى نعم ، وكانوا يتخذون من جواربهم وما ملكت أيمنهم متاعاً للهوهم وشهوتهم ، ويجردون في غير الجوارى سلوة وجدهم وگرامهم . وشعرهم في الجاهلية يتحدث عن ذلك ويفتن فيه . ومن بعد الإسلام كان شعر عمر بن أبى ربيعة وأمثاله فتنة لغانيات مكة ممن ورثن عن أمهاتهن وخالاتهن نزوعاً إلى الهوى آثمه الإسلام ولم يكن مأثماً قبله .

فلما تم لعمر شبابه هوت إلى الزواج نفسه . وقد ورث عن قومه ميلاً لكثرة الزوجات طلباً للولد . فتزوج في حياته تسع نسوة ولدن له اثني عشر ولداً : ثمانية بنين وأربع بنات . تزوج زينب بنت مظعون فولدت له عبد الرحمن وحفصة ، وأم كلثوم بنت علي بن أبى طالب فولدت له زيداً الأكبر ورقية ، وأم كلثوم بنت جرويل بن مالك فولدت له زيداً الأصغر وعبيد الله . وقد فرّق الإسلام بين عمر وأم كلثوم بنت جرويل . وتزوج جميلة بنت ثابت بن أبى الأفلح فولدت له عاصماً . وكانت جميلة هذه تدعى عاصية ، فغير النبي اسمها ، وقال لها : بل أنت جميلة . وتزوج أم حكيم بنت الحارث بن هشام ابن المغيرة فولدت له فاطمة . وتزوج عاتكة بنت زيد بن عمرو فولدت له عياضاً . أما هُيئة فأم ولد ، وولدها عبد الرحمن الأوسط . وفكّية أم ولد كذلك وقد أنجبت زيداً أصغر ولده . كما أن عبد الرحمن الأصغر أمه أم ولد اختلف المؤرخون في اسمها .

وقد تزوّج عمر أربعاً من أولئك النسوة بمكة ، وخمساً بعد هجرته إلى المدينة . على أن جمعهن لم يكتمل قط في بيته . فقد رأيت الإسلام فرّق بينه وبين أم كلثوم بنت جرويل ، وقد طلق نسوة غيرها : طلق أم حكيم بنت الحارث بن هشام ، وطلق جميلة التي ولدت عاصماً . ولو أن السن امتدت به لتزوّج غير أولئك النسوة التسع . فقد خطب أم كلثوم بنت أبى بكر وهي صغيرة ، وهو على إمارة المؤمنين ، وأرسل فيها إلى أختها عائشة ، فسألت أم المؤمنين أختها في ذلك فرغبت عنه ، وقالت إنه خشن العيش شديد على النساء . وخطب كذلك أم أبان بنت عتبة بن ربيعة ، فكرهته وقالت : يغلق بابه ويمنع خيرها ، ويدخل عابساً ويخرج عابساً .

وما ذكرته أم كلثوم بنت أبى بكر عن شدته وغلظته ، وما ذكرته أم أبان عن عبوسه

وقسوة عيشه ، كان بعض طبعه في شبابه ، ثم لزمه سائر حياته . لما استخلف كان أول دعائه قوله : « اللهم إني غليظ فلتني ! اللهم إني ضعيف فقوتي ! اللهم إني بخيل فسختني ! » ولقد ورث الغلظة عن أبيه وقسوته عليه في صباه ، ثم أعانته قوة بدنه من بعد على بقائها . أما ما ذكر عن بخله فسببه أنه لم يكن غنياً ، وأن أباه لم يكن غنياً . وقد ظل متوسط الحال في الغنى طيلة حياته ، مع أنه كان يعمل في التجارة كالكثيرين من أبناء مكة . ولعل غلظته هي التي حالت بينه وبين الإفادة من التجارة ما أفاد غيره . فهو لهذه الغلظة لم يكن يستطيع بالتجارة أن يبيع الماء من الحجارة ، ولا أن يحيل التراب ذهباً ، على تعبير قومه من قريش . هذا مع أنه لم يكن يقف من تجارته عند رحلتى الشتاء والصيف إلى اليمن وإلى الشام ، بل كان يذهب إليهما وإلى غيرهما من بلاد فارس والروم . لكنه كان في رحلاته هذه أكثر اشتغالاً بتثقيف ذهنه منه بإتمام تجارته . وقد أشار المسعودي في مروج الذهب إلى رحلات عمر في جاهليته وأنه لقي في أثنائها كثيراً من أمراء العرب وتحدث إليهم . وأغلب الظن أن ما كان يقوم به من السفارة عن قريش ، وما بلغه من المعرفة بالأنساب وأيام العرب ، وما اطلع عليه في أثناء قراءاته في كتب عصره ، قد جعله أكثر حرصاً على الكسب لزيادة علمه منه على الكسب لنماء ماله .

وهذه حال تجعل صاحبها أكثر اعتداداً بذاته واعتزازاً بنفسه . فصاحب المال في حاجة إلى إدامة صلواته الحسنة بالناس ، محافظة على ماله وطمعاً في تكثيره . والعامل في التجارة نجاحه فيها بحسن حيله وافتنائه في أساليبها . أما طالب الحكمة والراغب في المعرفة ، فيستين بالمال ويدل الدنيا ، لأن الحرص على المال يصرفه عن الحكمة ويزيده تعلقاً بالدنيا وإذعاناً لذوى السلطان فيها . ومن أذل الدنيا واستهان بالمال وطلب الحكمة والمعرفة اعتر بنفسه أيما اعتزاز ؛ وقد يبلغ من ذلك أن يعتزل الناس ازوراراً عنهم ، ورغبة عما بأيديهم ، وتسامياً عليهم . وهذه مرتبة لم يبلغها عمر في شبابه ، فأما الاعتزاز بالنفس والاعتداد بالذات فكان له منهما أوفر نصيب .

والتماس عمر أسباب المعرفة قد جعله منذ شبابه يفكر في شئون قومه وما يصلحهم ؛ ثم جعله اعتزازه بنفسه يتعصب لرأيه فيما يتنى إليه من ذلك ، فلا يقبل فيه جدلاً . وقد مالت به شدته ومال به بأسه إلى أن يبلغ بتعصبه حد العنف ، وأن يناضل عن رأيه بيد البطش ، كما يناضل عنه بحدّة اللسان . لكن ذلك لم يمنعه من أن يقلب آراء غيره فيما بينه وبين نفسه ، ليكون أبلغ حجة في دفعها وأقوى يدأ في القضاء عليها .

ولم تكن الآراء في مكة ولا في غيرها من بلاد العرب لتختلف في شئون الاقتصاد وشئون الاجتماع وما إليهما ؛ فقد ألف الناس في هذه الشئون ألواناً من الرأي ، ورثوها عن آبائهم ، وأخذوا بها في حياتهم ، واطمأنوا إليها فيما بينهم من صلوات ؛ وإنما وقع الخلاف على دينهم وعباداتهم . ذلك أن النصارى واليهود المقيمين بينهم كانوا ينكرون عبادة الأصنام ، ويرونها باطلاً يجب أن ينتزه العاقل عنه . وقد كان الذين رأهم العرب ببلاد الروم في أثناء رحلة الصيف من أمثال هؤلاء اليهود والنصارى أرقى من العرب حضارة ، وكانوا ينسبون رقيهم إلى أديانهم . ثم إن المبشرين بالمسيحية في ذلك العصر كانوا ذوى نشاط في الدعوة إلى دينهم والتبشير به مثل نشاطهم اليوم . لذلك صبأ من العرب أفراد ذوو حكمة أنكروا الأصنام وعبادتها .

ترى أصبأ عمر ، وهو القارئ الكاتب ، مع الصابئين ؟

كلا ! بل كان حرباً على هؤلاء أهول الحرب . وكان يرى في خروجهم على دين قومهم تفويضاً لركن الجماعة العربية ، ويرى لذلك محاربتهم والقضاء عليهم حتى لا يستفحل أمرهم . ولعله لم يكن متعصباً في هذا الرأي للأصنام وعبادتها تعصبه لقومه ، حرصاً على نظامهم وعلى ما يكفله النظام من إمساك كياناتهم وشد أزرهم إزاء غيرهم من الأمم .

والواقع أن العالم اضطرب منذ أقدم العصور بين أمرين جوهرين لحياته ، وهو لا يزال حتى اليوم مضطرباً بينهما ، ينصر أحدهما حيناً وينصر الآخر حيناً . هذان الأمران هما الحرية والنظام : حرية الفرد ، ونظام الجماعة . فالجماعة لا حياة لها إلا بالنظام . والفرد لا حياة له إلا بالحرية . فإذا تعارضت حرية الفرد ونظام الجماعة فأيهما تؤيد ؟ النظام لا ريب ، فحرية الفرد لا كفيل لها إلا نظام الجماعة . وإذا أهدر نظام الجماعة أهدرت حرية الفرد معه . لكن ! أليست لحرية الفرد حدود تجعلها لا تتعارض ونظام الجماعة ! أو ليس لنظام الجماعة حدود كذلك تجعله لا يتعارض وحرية الفرد ! هذه الحدود هي التي كانت ولا تزال موضع الخلاف . فلحرية الفرد حدود في الحياة الاقتصادية ، وفي الحياة الاجتماعية ، وفي الحياة السياسية ، وفي غير هذه من مظاهر الحياة . ولنظام الجماعة كذلك حدود في مظاهر الحياة ومرافقها جميعاً . ولطالما قامت الثورات وشبت الحروب بسبب الخلاف على هذه الحدود للحرية وللنظام في الأمة الواحدة وفي علاقات الأمم بعضها ببعض . بل إن الحرب كثيراً ما شبت لأغراض السيادة

والاستعلاء ، ثم لم يلبث الدعاة لها أن استظلوا بلواء الحرية حيناً ، وبلواء النظام العالمي الكفيل للحرية العامة حيناً آخر .

وقد تواضع الناس في كثير من الأزمان على أن حرية الرأي والعقيدة لا يمكن أن تتعارض مع نظام الجماعة ، مادامت محصورة في حدود العقيدة والرأي والتعبير عنهما . لكن ذلك لم يكن أمراً مقررأ في عهد عمر . وكثيراً ما شبت الحرب بين فارس والروم تعصباً لدين على دين . بل لقد شبت الحروب الصليبية بعد ذلك بين أوروبا المسيحية والمسلمين ، وظلت أزماناً طويلة متصلة الضُرام بسبب العقيدة . ذلك لأن الدين اعتبر من أسس الحياة الاجتماعية . وقد أدى ذلك إلى اعتبار الذين يدينون بغير دين الدولة في حكم الأجانب عنها ، إذا تسامحت معهم لأنهم ورثوا عقائدهم عن آبائهم فإنها لن تجعل لهم من الحقوق ما لبني دينها . لاعجب إذاً أن يكون عمر في جاهليته عدواً لمن يعبدون غير الأصنام . ولا عجب أن يكون حرباً على من صبأ من بني قومه على عبادة ما كان يعبد آباؤه وأجداده . ولم يُغْن عن هؤلاء الصابئين عنده أنهم كانوا ذوى حكمة ورجحان عقل ؛ بل لعل حكمتهم ورجحان عقلهم جعلاهم أكبر جريرة في نظره . فالناس لا يتبعون الجهال منهم ولا يتابعون عامتهم ، وإنما يتبعون من بني عشيرتهم من عرفوا حسن بصره بالأمر ، ودقة منطقه في تحرى الحق . فإذا جاز لقسّ بن ساعدة الإيادي أن يعيب أوثان العرب فهو نصراني له من دينه ما يعذره . أما زيد بن عمرو بن نفيل ، وورقة بن نوفل ، وعثمان بن الحويرث ، وعبد الله بن جحش وأمثالهم من أهل مكة الذين انصرفوا عن عبادة الأصنام ، وقال بعضهم الشعر في التوحيد ، فلا عذر لهم ولا مفرّ من خصومتهم وحرهم . فلو أنهم تركوا وشأنهم لأضلوا جمهور الناس وفرّقوا كلمتهم ، ولأوشكوا أن يثيروا في الأرض الفساد . وهذه الحدة من عمر وأمثاله قد حفظت على قريش وحدتها ، وعلى مكة مكاتها ، وجعلت الحكماء يقصرون حكمتهم على أنفسهم ، فلا يثيرون غيرهم لاتباعهم ، وتغيير ما ورث الناس من عقائد آبائهم وأجدادهم .

وقد كان عمر من أشد قريش على الصابئين فيها وأكثرهم جراً عليهم ، وأقساهم معاملة لهم . وكان له من غلظته ومن سرعته إلى الغضب ما يدفعه إلى المبالغة في شدته . وهو لم يكن قد جاوز الخامسة والعشرين ، فكان شبابه يذهب به في التعصب لرأيه إلى أبعد مدى . وقد اقترنت حدته في التعصب لرأيه بغلظته وقسوته ، فكان يحارب الخارجين على عبادة الأصنام أشد الحرب ، ثم كان أشد حرباً للذين يعيبنها .

في هذا الحين أذن الله فبعث محمداً إلى قومه يدعوهم للهدى ودين الحق . فلما بدأت دعوة التوحيد تنتشر ، أخذ المتعصبون للأصنام من أهل مكة يعذبون المستضعفين ممن أسلموا ليردوهم إلى عبادة الأصنام . وكان عمر بن الخطاب من أشد أهل مكة خصومة للدعوة الجديدة ومحاربة لها ، وسعيًا لفتنة الذين اتبعوها .

ذكر ابن هشام أن أبا بكر مرَّ به يوماً وهو يضرب جارياً ويعذبها لترك الإسلام ، ولقد ظل يضربها حتى ملَّ لكثرة ما ضربها . عند ذلك تركها وقال : إني أعتذر إليك ! إني لم أنترك إلا ملالة . وأجابته الجارية : كذلك فعل الله بك . وابتاع أبو بكر الجارية فأعتقها . لم يكن عمر يحارب محمداً ودعوته تعصباً وجهلاً ؛ فقد رأته من أحكم أهل مكة وأكثرهم علماً . وهو قد سمع من أقوال محمد ما أعجبه ، فلم يزد ذلك خصومته للدعوة الحديثة إلا لاجحة وقوة ، ولم يزد إلا إيماناً في إيذاء من يستطيع إيذاءهم من المسلمين ، حتى كانوا يلقون منه البلاء أذى لهم وشدة عليهم . ذلك بأنه رأى في متابعة هذا الرجل تقويضاً لنظام مكة وإثارة للفساد فيها . ومكة ونظامها وطمأنينة أهلها أحب إليه من محمد ومن دعوته التي فرقت كلمة قريش وهوت مكانة البلد الحرام . والصبر على هذه الدعوة يزيد كلمة قريش فرقة ومكانة مكة تهويناً . ولئن وقفت قريش من محمد عند مناوأة الذين اتبعوه ومحاولة رد الضعفاء منهم عن دينهم ، ليذهبن ذلك بريح مكة ، وليجعلن قريشاً مضفة في أفواه العرب جميعاً .

وأى ذنب جنى هؤلاء الضعفاء حتى يعذبوا ! إنما الذنب ذنب محمد وسحر بيانه وقوة منطقته . فهذا البيان الساحر هو الذي خلب عقول الضعفاء وعقول غيرهم ممن صبثوا عن دين آبائهم وأجدادهم . فلو أن محمداً مات لانقضت الفتنة وانجلت الغمة ، وأظلم السلام البلد الحرام وما قتل فرد لنجاة قبيلة ، بل لنجاة قبائل مكة جميعها ، فتعود كلمتها إلى الاجتماع ، ونظامها إلى الاستقرار ! !

لكن محمداً يقول كلاماً حسناً . وهو لم يزد على ترديد هذا الكلام ودعوة الناس بالحسنى لاتباعه . وهو بعد رجل لم تجرّب عليه قريش كذباً قط . أفيقتل لغير شيء إلا أن يقول ربي الله ، ويقول ذلك لأنه يعتقد ويؤمن به !

وكيف السبيل إلى قتله أو التخلص منه وهو من بني هاشم ، وبنو هاشم يمنعونه ! وبين الذين آمنوا به واستجابوا لدعوته وقاموا معه جماعة ذوو مكانة ينتمون إلى قبائل عزيزة تمنعهم كما يمنع بنو هاشم محمداً . فأبو بكر وطلحة بن عبد الله من بني تيم بن مرة ؛

وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص من بني زُهرة ، وعثمان بن عفان من بني عبد شمس ؛ وأبو عبيدة بن الجراح من بني فهر بن مالك ، والزبير بن العوام من بني أسد . وطولاء جميعاً من المكاتة في قبائلهم ما يقتضيها الذود عنهم إذا اعتدى معتد عليهم . فلو أن عمر حاربهم وحارب محمداً معهم وألب قريشاً عليهم لأثار بمكة حرباً أهلية أشد خطراً على مكاتها من محمد ودعوته .

كانت نفس عمر تضطرب بهذه الخواطر كلما خلا إليها . فإذا خرج إلى قومه ورأى تفرق كلمتهم راجعه حرصه على أن تعود إلى مكة سكينتها بالقضاء على مصدر هذه الفرقة . وظل هذا الخاطر يتردد في نفسه ، حتى أمر محمد من أتبعه بالهجرة إلى الحبشة فراراً إلى الله بدينهم فلما رآهم عمر يفارقون أهلهم ووطنهم رق لهم ، وحز الألم في قلبه لفراقهم ، وعظم عليه الأمر ، فثارت نفسه وطال تفكيره في التخلص من محمد ودعوته . إنه إن يفعل يُرح قريشاً ويُرَض آلهة الكعبة وآلهة العرب جميعاً . فإن أصابه بفعلته مكروه احتمله في سبيل قريش وفي سبيل مكة . وقريش أهله ، ومكة وطنه . والمكروه في سبيل الأهل والوطن سائق مستحب .

ذلك ما استقر عليه عزمه . لكنه نسي أن لله في الخلق حكمة ، وأن حكمته جل شأنه قضت أن يغلب عقل عمر ثورة غضبه ، فيؤمن بمحمد ليكون الفاروق الذي يتحدث الناس باسمه في إجلال وإكبار إلى آخر الدهر .